

نظرات داعية في السور المكية

سورة الأنعام

حافظ صالح

دار النهضة دار القاهرة

الطبعة الأولى

1415-1416 هـ

1994-1995 م

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وآله الطيبين الطاهرين وصحبه
الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

إن من ملكت عليه العربية مشاعره، واستولت على أحاسيسه، فإنه دائم البحث عن ضالته، مرة
في الشعر الجاهلي، وأخرى بين يدي كتاب الله، ينقب في ألفاظه، وتراكيبه، ومعانيه، ووجوه
الإعجاز فيه، فهو يغوص في أعماقها يلتقط من دررها، مردداً لسان حالها كما وصفه الشاعر
حافظ إبراهيم رحمه الله بقوله على لسان اللغة العربية.

أنا البحر في أحشائه الدر كامن فهل سألوا الغواص عن صدفاتي
وسعت كتاب الله لفظاً وغاية فما ضقت عن أي به وعظات

وأما الفقيه فإنه يقرأ القرآن باحثاً عن خطاب الشارع المتعلق بأفعال العباد، حتى إذا وجد آية يخاطب بها الله عباده، أو فيها ما يتعلق بأفعالهم، انكب عليها بكليته، وبدأ بالتحليل والفهم والاستنباط، فهو مؤمن كل الإيمان بأنه ما من مسألة إلا ولها في كتاب الله جواب، أو في سنة رسول الله المبينة لكتاب الله.

وعالم أصول الدين يقلب وجوه الإعجاز في هذا الكتاب ليقيم الحجة، ويأتي بالبرهان الساطع أن هذا الكتاب هو كلام رب العالمين، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل حكيم حميد لكي ينطلق من ذلك لتناول آيات العقيدة التي لا تكاد تخلو آية منه من إلقاء الضوء على جانب من جوانب العقيدة ويحاول توضيح ما تشابه منه قائلًا (كل من عند ربنا وما يذكر أولوا)
لألباب).

وكذلك الحال بالنسبة لعالم أصول الشريعة.

ومثلهم المنتبِع للأمثال والمسحور بالصور الفنية الرائعة التي توضح معنى من المعاني، أو تقربه للذهن، أو تجسده بحيث في السامع المتدبر لمعانيه يلمس المقصود بيده.

ومثله المنتبِع للقصص القرآني، أو المفتون بأساليب النقاش والجدل الفكري. حتى ذلك الذي اعتبره شجرة وارفة الظل، فأحب أن يحيا في ظلالها، ويسكب لنا مما فاضت به عاطفته، وجادت قريحته ما يطفئ فينا الظما، ويذهب ما في قلوبنا من غلة.

أما كتاب السير وللأسف الشديد فقد كان اهتمامهم اهتماماً تاريخياً لحياة الأشخاص وقد غاب عنهم الربط بين القرآن وتتابع نزوله على الحوادث والوقائع الجارية، إلا لمأماً وكان الأجر لمعرفة خط سير رسول الله، أن يكون مرشدهم تتابع النزول وأسبابه فقد كانت الآيات تنزل حسب الأحداث- وهذا أمر مجمع عليه.

وبناء على ما تقدم ألا يجدر بالداعية، بل ألا يجب على الداعية أن يمعن النظر في السور المكية، ليعرف ما ير المواضيع التي كان يعالجها، أو يتعرض لها رسول الله في تلك المرحلة المكية بل يجب أن يعيد النظر المرة تلو المرة في ترتيب السور من حيث النزول، وأسباب النزول لكي يتقيد بالطريقة التي سار عليها رسول الله.

إن هذا ما دفعني لتكرار النظر في السور المكية وترتيبها من حيث النزول، ومعرفة المواضيع التي كان رسول الله يتصدى لها.

وعلى الله قصد السبيل.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله الطيبين ورضي الله عن صحابته الغر الميامين. أما بعد فإن خير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم وقد رأيت أن أتبع هديه وأسير على خطاه مستلهماً رشدي بفهم سيرته صلى الله عليه وآله من تتبّع سور القرآن الكريم بحسب نزولها. فقد كان عليه الصلاة والسلام يبلغ ما ينزل إليه من ربه لا يخفي منه، ولا يؤخره عن يوم تنزيله. وبهذا تمكن من فهم المواضيع والأمور التي كان

يعالجها، ومعرفة الأفكار التي كان يطرحهما. ولما كان القرآن الكريم هو الأمر الذي اجمع عليه المسلمون، وإن اختلفوا في فهم بعض أفكاره، واستنباط أحكامه. والاختلافات في ترتيب السور لا تؤثر كثيراً فيما ذهبنا إليه فهي اختلافات بسيطة جداً. وخصوصاً فيما هو مكّي وما هو مدني. فمن السهل علينا معرفة القضايا كان يعالجها في كل مرحلة. وقد أجمع المسلمون بالدليل القطعي القرآن نزل منجماً بحسب الأحداث والوقائع ومقتضى الحال ولهذا قررت أن أتتبع السور بحسب ترتيب نزولها حسب ما- في أسباب النزول للسيوطي وغيرها من الكتب.

مقتصراً في بحثي هذا على السور المكية، فهي بيت القصيد في هذه المرحلة التي نمر بها. لأن السور المدنية نزلت بعد الهجرة بعد قيام أول دولة إسلامية. فأفكارها وأحكامها كانت تبعا لما تقتضيه مرحلة الدولة، وواقع المجتمع الجديد. وعلى سبيل المثال فإن المتتبع للسور المكية لا يجد فيها سورة أو آية تتعرض للنفاق والمنافقين لأن المجتمع المكّي لم يكن فيه نفاق ولا منافقون وواقع المسلمين في المجتمع المكّي لم يكن ليغري أحداً للتلبس بثوب الإسلام نفاقاً. بينما المجتمع المدني، وقد أصبح للمسلمين وكيان فقد كثر فيه المنافقون، فتولى القرآن الكريم معالجة الواقع. ومن المعروف أن سورة البقرة هي أول سورة نزل المدينة، وبالنظر فيها منذ البداية أنها في مطلعها تناولت المؤمنين بأربع آيات وتناولت الكفار بآيتين، وتناولت المنافقين بثلاثة عشر آية.

نعم إن القرآن الكريم كان يتنزل منجماً على الأحداث ومقتضى الحال، وتتبع مراحل النزول يجعلنا ندرك المراحل التي مر بها رسول الله، ونعرف المواضيع التي يتناولها، والأفكار التي يطرحها، والعقائد التي يهتم بتركيزها. أو عقائد الضلال التي يفندوها ويبطلها. نعم إنه من البد يهي أن يحصل اختلاف في فهم الآيات، والغوص في معانيها، ومعرفة أبعادها، واستنباط الأحكام منها إلا أن الفهم العام للمسألة التي وردت فيها، أو الموضوع الذي عالجه قد لا يختلف فيه اثنان. ومن هذا المنطلق أقول أنه لا بد من فهم سيرة الرسول لا من كتب التاريخ والسير، بل من تتبع سور القرآن الكريم بحسب نزولها. وإني إذ أطرق هذا الباب أتمنى على علماء المسلمين ومثقفهم تناول هذه المسألة بما تستحقه من أهمية. فوحدة فهم هذا الموضوع قد تجمع بين العديد من حملة الدعوة على طريق واحد. ولا أعني جميعهم في تكتل واحد. فالاختلافات حتمية، وتعدد الأفهام للمسألة الواحدة بديهي كذلك. وأعني بذلك الجمع، إجماعهم على تناول المواضيع والوقائع الجارية تيمنا بل التزاماً بالطريقة التي سار عليها القرآن الكريم ونفذه محمد صلى الله عليه وسلم، كل بحسب تصوره لها، وبأسلوب الذي يرتأى به، والابتعاد عن المهادنات، والصراعات الجانبية، وليكن التصور عند الجميع رفع شأن هذه الأمة، ومصارعة الأفكار الدخيلة عليها، وإزالة التغطية التي طرأت على أفكارها ومعتقداتها. وبيان وتجسيد قضيتها. بحيث تصبح قضية مصيرية تتخذ الأمة حيالها موقف النصر أو الموت. ولذا فإنني أهيب بجميع المفكرين المؤمنين أن يعيدوا النظر في خط سيرهم، والطريقة التي اتخذوها، مستلهمين من سور القرآن وترتيب نزولها نبراساً يسترشدون به، ويسيروا على نهجه. نعم. لقد اعتنى المسلمون بالقرآن الكريم عناية فائقة الوصف، فمن حيث التلاوة والتجويد يتبارى الآلاف من المسلمين طيلة الأربعة عشر قرناً بالتلاوة والتجويد وحسن الأداء والصوت.

و أما القراءة والتلاوة التعبدية فإن ملايين المسلمين يداومون على قراءته آ ناء الليل وأطراف النهار وقليل منهم من لا يختمه و لو مرة في السنة على الأقل.

وأما عن حفظه في الصدور فلم يخل عصر من العصور قل فيه عدد الحفظة عن مليون مسلم. هذا من حيث التلاوة والحفظ، و أما من حيث التدبر واستنباط المعاني. فعلماء أصول الدين وعلماء الفقه وأصول الفقه، فقد أبدعوا أيما إبداع في كشف المعاني و استنباط الأحكام والرد على الخصوم، وغير ذلك مما هو من اختصاص الفقهاء وعلماء أصول الدين.

وقام العديد من المفسرين بشرح الآيات واقتناص معانيها والكشف عن أسرارها. وقد اتجه المفسرون اتجاهات عدة. منهم من اقتصر على شرح المفردات، ومنهم من زاد على ذلك بشرح الأفكار ومنهم من اهتم بالعقائد، ومنهم من اهتم بالإعراب والقواعد، ومنهم من ذكر بعض أسباب النزول، إلا أنه للأسف لم ينظر إليه كمنهاج دعوة في فهم سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مكلفاً ببيان ما ينتزل إليه من القرآن الكريم، وكان مسيراً بالوحي، والقرآن يتولى التوجيه والرد والبيان. توجيه الرسول في التبليغ والرد على الخصوم وبيان الوقائع والأحداث. فإذا تناولت هذا القرآن على هذا النحو اتضحت لنا سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفنا المواضيع التي كان يعالجها والمراحل التي مر بها. وبمنظرة بسيطة نلاحظ أن القرآن الكريم لم يتعرض للنفاق والمنافقين في المرحلة المكية، لأن هذه المسألة لم تكن موجودة، بينما تناول هذه المسألة في العديد من السور والآيات. وقد نزلت سورة باسم المنافقون.

لأن هذا الواقع أصبح موجوداً في المدينة، وهناك سهولة كبيرة في التفريق بين المكي والمدني لأن المواضيع في مكة تختلف تماماً عن المواضيع في المدينة، والواقع في مكة يختلف عن الواقع في المدينة من حيث أن الواقع في مكة كان واقع دعوة وصراع فكري وكفاح سياسي للوصول إلى إيجاد سلطان للإسلام ودولة للمسلمين. أما المرحلة المدنية فقد كانت مرحلة دولة وسلطان وبسط نفوذ وتنظيم حياة وجهاد.

بمثل هذا التفريق نريد إمعان النظر في المرحلة المكية، لنعرف الأدوار التي مرت بها الدعوة أي أننا نريد أن نفهم سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من تتبع سور القرآن الكريم بحسب النزول، وأسبابه مما استطعنا لذلك سبيلاً.

فنحن الآن أشبه ما نكون في المرحلة المكية من حيث مراحل الدعوة وأساليب العمل، عسى الله أن يلهنا السداد والرشاد.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنعام

سورة الأنعام هي إحدى السور المكية الطويلة التي يظهر فيها جلياً أنها تضمنت كافة المواضيع والشؤون التي تقتضيها الدعوة في مراحلها قبل إقامة الدولة. فهي لم تعرض لشيء من الأحكام التنظيمية للمجتمع الإسلامي، فلم تذكر شيئاً عن نظام الإسلام ولا عن النظام الاقتصادي ولا عن نظام العقوبات، عن أحكام الأسرة والأحوال الشخصية بل لم يرد فيها أي أمر من أحكام العبادات كالصلاة أو الصيام أو الزكاة أو الحج. كما لم تتعرض لعلاقات المسلمين بغيرهم ولا لأحكام الجهاد وقاتل الكفار، ولا لقتال الخارجين على الدولة أو المرتدين فهي بحق سورة دعوة كغيرها من السور المكية، إلا أنها امتازت عن غيرها بشمولها كافة المواضيع التي يحتاجها الداعية. ففي الوقت الذي تفند فيه آراء الخصوم، وتبين فساد عقائدهم وتدحض حججهم بالعقل والبرهان الساطع تثبت صدق العقيدة الإسلامية، ووضوح أفكار الإسلام المنزلة لمخاطبة قوى الإنسان العاقلة فهي تقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق. كما أنها تناولت فساد العلاقات القائمة في المجتمع المكي وبيّنت بطلانها، كما بيّنت ما يلاقيه حامل الدعوة من مشاق وما يتعرض له من أذى مبيّنة ذلك بذكر خليل الله إبراهيم وبعض أبنائه، وباختصار أنها تناولت القضايا الأساسية في الدعوة وهي.

1- قضية الألوهية 2- قضية الوحي والرسالة 3- قضية البعث والجزاء 4- قضية الرد على الكفار والمشركين 5- بيان مفسد المجتمع المكي ، وقضايا التحليل والتحرير ..

وقد أجاد فضيلة الشيخ محمد علي الصابوني إجادة رائعة في وصف هذه السورة لا أجد بعده من مزيد فهو يقول:

نجد الحديث في هذه السورة مستفيضاً يدور بشدة حول هذه الأصول الأساسية للدعوة الإسلامية، ونجد سلاحها في ذلك الحجة الدامغة، والدلائل الباهرة، والبرهان القاطع في طريق الإلزام والإقناع. لأن السورة نزلت في مكة على قوم مشركين. ومما يلفت النظر في السورة الكريمة أنها عرضت لأسلوبين بارزين لا نكاد نجدهما بهذه الكثرة في غيرها من السور هما 1- أسلوب التقرير 2- أسلوب التلقين.

أما الأول- أسلوب التقرير- فإن القرآن يعرض الأدلة المتعلقة بالتوحيد، والدلائل المنصوبة على وجوده وقدرته، وسلطانه وقهره، في صورة الشأن المسلم به، ويضع لذلك ضمير الغائب عن الحسن الحاضر في القلب الذي لا يماري فيه قلب سليم ولا عقل راشد في أنه تعالى المبدع للكائنات صاحب الفضل والإنعام. فيأتي بعبارة (هو) الدالة على الخالق المدبر (هو الذي خلقكم من طين) الأنعام 2، (وهو الله في السموات وفي الأرض) الأنعام 3، (وهو الذي يتوفاكم بالليل) الأنعام 60، (وهو القاهر فوق عباده) الأنعام 18، 61، (وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق) الأنعام 73، الخ.

أما الثاني - أسلوب التلقين- فإنه يظهر جلياً في تعليم الرسول صلى الله عليه وسلم تلقين الحجة ليقتف بها في وجه الخصم بحيث تأخذ عليه سمعه، وتملك عليه قلبه فلا يستطيع التخلص أو التقلت منها، ويأتي هذا الأسلوب بطريق السؤال والجواب، يسألهم ثم يجيب. استمع إلى الآيات الكريمة (قل لمن ما في السموات والأرض قل الله كتب على نفسه الرحمة) الأنعام 12 ، (قل أي شيء أكبر شهادة قل لله شهيد بيني وبينكم) الأنعام 19، (قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به) الأنعام 46، (وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون) الأنعام 37

وهكذا تمضي السورة الكريمة في مناقشة المشركين وإفحامهم بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة، التي تقصم ظهر الباطل . ومن هنا كانت سورة الأنعام بين السور المكية ذات شأن عظيم في تركيز الدعوة الإسلامية يقول ابن عباس رضي الله عنه نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة واحدة، حولها سبعون ألف ملك يجأرون بالتسبيح . ويقول الإمام الرازي امتازت هذه السورة بنوعين الفضيلة أحدهما أنها نزلت دفعة واحدة، وثانيهما أنه شيعها سبعون ألف من الملائكة. والسبب في هذا الامتياز أنها مشتملة على دلائل التوحيد، والعدل، والنبوة، والمعاد، وإبطال مذاهب المبطلين والملحدين، والرد على أئمة الكفر والضلال.

ولنستعرض على سبيل المثال لا الحصر بعض الآيات الدالة على ما أشرنا إليه من مواضيع تناولتها السورة، فقد بدأت السورة بالحمد والثناء على الله الذي خلق الظلمات والنور، والذي خلق الإنسان من طين، وجعل له أجلاً، ويعلم السر والجهر، توجهت بالخطاب إلى الذين كفروا الذين انحرفوا عن الحق و عدلوا إلى غيره، وما زالوا معاندين مكابرين.

يقابل هذا في واقعنا الحالي مواقف الحكام، وبعض الفئات الضالة المضلة. الذين عدلوا عن الطريق القويم، واستبدلوا بشريعة الله شرائع وضعيه. ولم يفهم ذلك بل أعلنوها حرباً شعواء

على دعاة الإسلام في جميع بلاد المسلمين.

أفلا يعتبرون بما فعل الله بغيرهم. إذن فلينتظروا النتيجة .

هناك الكثير من الناس ممن أصابهم اليأس وممن أعمت بصيرتهم زخارف الحياة، وبهرت عيونهم أضواء المدنية، والتقدم التكنولوجي، فأصموا أذانهم واستغشوا ثيابهم، وأصروا واستكبروا استكباراً. فاتخذوا من دون الله أرباباً آلهة، شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله. والله ما في السموات وما في الأرض.

أليس من واجب كل داعية أن يكون على بصيرة من هؤلاء. فيبين للناس واقع هذه الفئات الضالة، وما تدعو إليه من أفكار تبت من مفاهيم، وما تطبق من نظم. وهذا يتطلب منه الوعي العام على ما عندهم، فيبين فسادهم للناس، ومناقضته لعقائد المسلمين.

وعليه أن يعلنها للملأ أن لا ولاء إلا لله، ولا خضوع إلا لنظام الإسلام، لا تأخذه في الله لومة لائم. ولا يخشى إلا ذنبه . مؤمناً بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه (وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وان يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير . وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير) الأنعام 17-18

لقد كانت العقدة المستعصية أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم زعماء قريش، بعنادهم واستكبارهم. فقد روي. أن رؤساء مكة قالوا يا محمد: ما نرى أحداً يصدقك بما تقول من أمر الرسالة. ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة فأرنا من يشهد لك أنك رسول كما تزعم؟ فأنزل الله (قل أي شيء أكبر شهادة؟ قل الله شهيد بيني وبينكم..). وعن ابن عباس "إن أبا سفيان والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث جلسوا إلى رسول الله وهو يقرأ القرآن. فقالوا للنضر، ما يقول محمد؟ فقال أساطير الأولين مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية فأنزل الله (ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه....) الأنعام 25 .

وروي أن الأحنس بن شريق التقى بأبي جهل فقال له يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس عندنا أحد غيرنا فقال أبو جهل والله ان محمداً لصادق وما كذب قط ولكن إذا ذهب "بنو قصي" باللواء، والسقاية، والحجابة، والنبوة فماذا يكون لسائر قريش فأنزل الله (قد نعلم انه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك) الأنعام 33.

فإن كان زعماء قريش وقادتها كانوا يدافعون عن زعامتهم وينافحون عن ملكهم مع يقينهم بأن محمداً لمج! لم يكن كاذباً.

وقد فضح القرآن الكريم هذه المواقف وجهر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . فحري بدعاة الإسلام أن يبينوا مواقف حكامهم وزعمائهم ولئن كان أولئك الزعماء يجلسون إلى رسول الله ويناقشونه فيما يقول. إلا أن زعماء اليوم وحكام المسلمين لم يجرؤ أحد منهم مناقشة حملة الدعوة، ومقارعة الحجة بالحجة. بل اكتفوا بإعلان الحرب عليهم، بالتعذيب والتشريد والقتل. لذا فإن على الدعوة أن يقابلوا تلك الحرب بمثلاً ولكن بالفكر، وفضح المؤامرات، وكشف الخيانات. فلا يجوز موالة أحد منهم. ولئن ذهب زعماء مكة لليهود والنصارى ليستفسروا عن صدق رسالة رسول الله فخدعهم وقالوا أنه لا ذكر له في زعماء المسلمين اليوم لم يذهبوا للاستفسار بل تأتي الأوامر للتنفيذ وكما كان اليهود والنصارى يعرفون أن القرآن الكريم كلام الله و أن محمداً رسول الله كانوا يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم أمريكا وبريطانيا وفرنسا،

وصنعتهم إسرائيل يعرفون أن الإسلام سيعود للحياة مرة أخرى ولذلك فإنهم يضعون هذه الصخور في الطريق، ولا يجابهون المسلمين إلا في آخر الخنادق. كما فعل والنصارى من قبل.

ولئن رفض ! الحكام والزعماء والفئات الضالة الاستماع لهذا مشافهة فعلى حملة الدعوة أفرادا وأحزابا أن يسمعه لهم بكل وسيلة ممكنة. يجب أن يكون ذلك مادة أساسية في مناهجهم، و مؤكدة في يوميات برامجهم. يجب أن نقول لهم ما كان يتلو عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم (وهم ينهون عنه وينأون عنه وأن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون) الأنعام 26. ولا أظن أن تحذيرات الله لهم، وما ورد بحقهم عن موقفهم يوم القيامة (ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق، قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) الأنعام 27. إن هذا التهديد لا يجدي فقد ران على قلوبهم كانوا يكسبون

لا تياسوا يا دعاة الإسلام. انه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون. إنكم تسيرون على طريق محمد! الذي خاطبه ربه بقوله (ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا....) الآية الأنعام 34. وقال (وان كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبغى نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين) الأنعام 35. تلك سنة الله في خلقه. إنما يستجيب الذين يسمعون والموت بيعتهم الله ثم إليه يرجعون.

وتتتابع الآيات بالتهديد والوعيد (قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ...) 40 حتى آية 48 (قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون) ويزفها بشرى بعد ذلك ليقول (وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (إن الحكم إلا الله يقص الحق وهو خير الفاصلين) 57.

سنة الله في الذين خلوا من قبلكم. وما زال التاريخ يعيد نفسه، فقد قال قوم نوح عليه السلام. وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا، وما نرى لكم علينا من فضل. وهاهم يقولون لمحمد صلى الله عليه وسلم (أهؤلاء من الله عليهم من بيننا) الأنعام 53.. وما زالت تلك مقولتهم إلى الآن.

. قال الله تعالى (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلمهم يتقون ، ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداوة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فطردهم فتكون من الظالمين، وكذلك فتنا بعضهم ببعض.. الآيات) ، حتى 58

تبين هذه الآيات ازدراء الكفار لأتباع النبي متخذة ذريعة لرفض الدعوة وهنا يبين الله سبحانه وتعالى لرسوله وجوب احتضان كل من آمن برسالته. فلا مفاضلة بين المؤمنين وعليه أن يقول لمن آمن؟ سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة.

وهنا لا يجوز أن ينظر للفرد لمكانته الاجتماعية، أو حالته الاقتصادية، أو للشهادة الجامعية، أو القدرة على القيام بالأعباء والتكاليف. فلا يجوز أن يكون هذا مسؤولا لأنه دكتور، أو لأنه تاجر كبير، أو لأنه قريب. ولا لأي سبب إلا بمقدار ما يحسن من القيام به من عمل. وكما يقال وضع الرجل المناسب في المكان المناسب.

أن التزلف للسلطان، والتودد للكفار، والمداهنة مع أعداء الله ، والإدعاء بأن السكوت على

الحكام والزعماء يفسح المجال أمام الدعوة ، ويبسر الأمر أمام الدعوة ولا ضرورة للمجابهة .إن هذا الأمر هو عن اتباع للهوى ، ومرضاة للشيطان ، وقد نهانا الله سبحانه وتعالى عن اتباع الهوى . وأمرنا بالتسليم لحكمه وقضائه .

أمرنا سبحانه وتعالى أن نكون على بينة من ربنا . أمرنا أن تكون أفكارنا ومفاهيمنا وتصرفاتنا تبعا للحكم الشرعي ومبنية على أدلة من كتاب الله أو سنة رسول الله . أمرنا أن يكون فكرنا واضح مبني على دليل ومطابق للواقع، وأن يكون هدفنا واضح مبني على دليل. فلا يقال نحن ندعو إلى الله تعالى، فإن شاء من علينا بفضل وكرمه، عند ذلك نبحت عن الأحكام المتعلقة بتلك المرحلة. فالرسول صلى الله عليه وسلم، لم يبين للناس ولا لأصحابه هدفه من الدعوة. حتى من الله عليه بها. وبدأت الأحكام الخاصة بمرحلة الحكم تنزل تباعا حسب مقتضى الحال. لا يقال ذلك. فالرسول صلى الله عليه وسلم منذ أن أمر بالتبليغ. وقيل له يا أيها المدثر قم فانذر كان انقياده لله تعالى. فكا يقول إني رسول الله ولن يضيعني فكان يسير بدعوتيه كما يأمره به الله، وتنزل الآيات عليه حسب مقتضى الحال. وكان التسليم المطلق منه ومن أصحابه بأن الحكم لله تعالى. حتى أعداؤه كانوا على يقين بأنه يدعو لتكون الحاكمية لله. كما أنه كان على يقين هو وأصحابه بأن الوحي ينتزل عليه كما يقتضى الأمر. أما اليوم، فلا وحي ولا توجيه فقد اكتمل الدين وتمت النعمة. وهذا يقتضي يكون الفرد أو الكتلة الداعية إلى الله أن تكون على بينة من أمرها تنزل من الأفكار والأحكام ما يناسب الوقائع اليومية الجارية، وهذا يعني حتمية وجود تصور تام لما تريد، ووعي كامل على ما يجري من أحداث. نعم إن الذخيرة الفكرية والفقهية الموجودة بطون الكتب. وكتب الحديث وكتب التفسير وكتاب الله بين أيدينا . ولكن هل الكتلة أو التنظيم قد اختار ما يلزمه من أفكار وأحكام تبين هدفه، وما تتطلبه المراحل التي يسير فيها. وهل يتمكن من إنزال الأفكار والأحكام على الوقائع الجارية إن لم يكن قد استخلصها وتبناها، وثقف بها من اتبعه. وكيف تكون الحاكمية ، ونحن لم نكلف نفسنا العناء بالبحث واستخلاص معنى كون الحاكمية لله. خصوصا وقد أسدل على معناها ستار كثيف لم يتمكن المسلمون من إدراك حقيقته في عصرنا الحاضر إلا من رحم ربي . والدليل على ذلك أن خطيب المسجد الذي يعتبر قائدا لجماهير المسلمين، يقف على المنبر ليقول إن الإسلام هو دين الديمقراطية، وفي عقد الستينات كان يقول الإسلام دين الاشتراكية، وما زال يقول الإسلام دين الحريات.

نظام الحكم في الإسلام نظام الشورى، أساس الاقتصاد في الإسلام الزكاة. النظام الاجتماعي في الإسلام المساواة. هذا إن كان جريثا مغامرا يتحدث بالسياسة. وإلا فإنه يقتصر على بيان أحكام الموضوع ونوا قضه .

وكيف تكون الحاكمية لله ونحن نتسابق للمشاركة في السلطات التشريعية. اجعلنا من الله آلهة أخرى؟ وهل ينكر أحد أن السلطة التشريعية. أي البرلمان. هي الجهة المسؤولة عن وضع القوانين والتشريعات أو إقرارها، بدلا من شريعة الله.

وتعود السورة لتذكر حملة الدعوة والناس إن الأمر كله بيد الله تعالى (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو....) الآيات إلى قوله تعالى: (ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ، ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ، قل من ينحكم من ظلمات البر والبحر) إلى قوله تعالى (قل الله ينحكم منها ومن كل كرب.... ثم أنتم تشركون)..... الآيات الأنعام 59-64 .

إن هذه الآيات وما يليها لتبعث الأمل في نفوس الدعاة وهم يسمعون قوله تعالى أن الأمر بيده وأن له الحكم أولا و آخر. فلا يأس مع الإيمان ولو كذب أو تقاعس أو جبن عن ذلك من ضعف إيمانه، أو تزعزعت ثقته بنفسه. فإن كان محمد فالرسول صلى الله عليه وسلم يخاطبه ربه بقوله

(وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل) الأنعام 66 ولذلك فهي تطلب منه ومن حملة الدعوة الذين ساروا على طريقه تطلب منهم المواقف الجدية بلا مجاملة أو إظهار مودة. بل حذرتنا الجلوس مع أولئك النفر المستهزئين الذين يسخرون من الذين آمنوا أو يطعنون بعقائد المسلمين وأحكام الإسلام. أما مصير -المستهزئين- فإن لهم شراب من حميم وعذاب أليم. وتستمر الآيات بشد عزيمة المسلمين وتحذيرهم من أية استجابة لدعوات والضلال.

إذن فلا بد أن تكون نظرنا لهذه الآيات أنها توجيه عام لحملة الدعوة وهذا الأسلوب الذي اتبعه القرآن الكريم ، أعني أسلوب الترغيب والترهيب. فتطلب من الداعية دائما أن يذكر أنه عبد لله، وبيده مصيره، وإليه مرجعه، كما أن بيده مصير خصومه فهو القادر على أن يبعث عليهم العذاب من فوقهم أو من تحت أرجلهم أو يلبسهم شيئا فيذيق بعضهم بأس بعض. وقد رأينا ونراه يوميا.

إن هذا الواقع ماثل مجسد أمامنا. فما من أحد إلا شاهد بأمر عينه في هذا العالم آلاف الحوادث والعديد من الحروب الطاحنة ، ذاق بعضهم بأس بعض، وصب العذاب من فوقهم وفجرت الأرض من تحتهم. سواء في الحروب العالمية أو الحروب الإقليمية. بل وفي البلد الواحد، وفي بلاد الإسلام وبين المسلمين كذلك. كان هذا مصداقا لما جاءت به الآيات . وما ورد على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث طويل <>ما ترك قوم الحكم بالقرآن إلا جعل الله بأسهم شديدا>>.

وكما تنزلت هذه الآيات على الوقائع الجارية فإنها ما زالت تنزل على الأحداث الجارية في عالمنا الحاضر. وكأنها تخاطب الناس في هذا العصر. فهل آن لحملة الدعوة أن يجيدوا إنزال الآيات والأحكام الشرعية على الأحداث الجارية؟

قال تعالى (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة أني أراك وقومك في ضلال مبين) الأنعام 74 إلى قوله تعالى (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده...) الآية 90.

هذه القصة التي وردت في سورة الأنعام. قصة سيدنا إبراهيم مع أبيه وقومه. هل هي مجرد قصة؟ وهل أن إبراهيم علي السلام كان حائرا يبحث عن ربه؟ وهل كان هذا البحث عن ربه كان أيام حدثه قبل أن يوحى إليه؟- كما جاء في بعض المفسرين. أم أنها كانت أسلوبا اتبعه إبراهيم عليه السلام؟ الأسلوب الرائع. وهو أن تسلم جدلا برأي الخصم ثم تعمد إلى تفنيده. وقد أبدع إبراهيم عليه السلام في اختيار الأساليب. فقد سبق وأقام الحجة على النمرود قبل أن أمر بحرقه. (إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتى بها من المغرب فبهت الذي كفر) البقرة 258 وكما فعل حين حطم آلهتهم، وحين سأله عن فعل هذا بالهتهم (قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون) الأنبياء . حيث كان قد وضع الفأس في عنق كبير الآلهة. فأقام الحجة عليهم . ولهذا فإن من المرجح أن تكون هذه القصة هي من الأساليب الذكية البليغة التي كان يتبعها سيدنا إبراهيم عليه السلام.

وهذا ما يتناسب مع سياق السورة التي زخرت بمثل هذه المناقشات العقلية، والبراهين الساطعة. وفي النظر إلى القرآن الكريم ككتاب دعوة، قام بتبليغه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم نفهم أن هذه القصة إرشادا لحملة الدعوة للإبداع في الأساليب، والفن في الجدل للوصول بالخصم إلى استعمال عقله والحكم على بطلان عقيدته بنفسه. فهل حاول حملة الدعوة القيام بمثل هذه الأساليب ولو تقليدا واتباعا لما علمتنا السور والآيات.

فعلى سبيل المثال، يجمع العالم بكامله دولا وأحزابا على أن التشريع والتنظيم هو العمل الأساسي للمجالس النيابية. وبعبارة أخرى أن الإنسان هو الذي يضع نظم وقوانين الحياة لتنظيم تصرفات الفرد وتنظيم العلاقات في المجتمع، شريطة أن تكون الحرية هي الأساس الذي ينطلق منه المشرع أي أن المشرع يجب لا يكون خاضعا لأي تأثير أثناء قيامه بوضع تشريعاته، وأن تكون الحرية الفردية هي الأساس الذي ينطلق منه أثناء وضع تشريعاته. أي أن تكون تشريعاته مستهدفة الحفاظ على حرية الفرد، و'عطائه حق ممارسة إرادته في الحياة.

إذن فالعالم اليوم يجمع على أمرين، الحرية للفرد، والتشريع للناس.

فهل قام الدعاة- دعاة الإسلام- بطرح الأساليب المتعددة في الحوار أو المناقشات لإثبات بطلان هاتين القاعدتين الأساسيتين في العالم، وبيان زيفهما، وإظهار مناقضتهما للإسلام، وانهما نوع من الشرك.

أما كونهما نوع من الشرك. فإن حملة هاتين الفكرتين يدعون أنهم يؤمنون بالله ومع ذلك فإنهم يتهمون الله بالعجز. فقد أخذوا من شرع الله بعض الأحكام مثل أحكام العبادات، وأحكام والطلاق، وبعض مراسيم الوفاة. وتركوا ما سوى ذلك. وجعلوه من صلاحيات الإنسان نفسه ليضع ما يشاء من نظم وتشريعات أليس هذا شركا واتهاما إلى الله بالعجز. فأنه وضع تشريعات العباد والزواج والطلاق والوفاة، والإنسان يتولى ما بقي تشريعات. فماذا تفسرون ذلك.

وأما الحرية- تلك الكذبة الكبرى- فليست سوى استبدال العبودية للقانون بالعبودية لله. فالعبودية لله تقتضي تقديسه وإطاعة أوامره، وإلا فالعقوبة العاجلة من قبل الدولة أو مؤجله لليوم الآخر. وقد قال تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) الزلزلة 7/8 ، أي أن الإنسان مسؤول عن كل تصرف له من قول أو عمل.

والعبودية للقانون لا تخرج عن هذه الأمور. فإنها تحتم احترام القانون وتقديس الدستور وتحذر من مخالفته أو الطعن فيه. وقد شرع القانون أحكاما لتنظيم سلوك الأفراد بدءا من الكلمة وانتهاء بقتل النفس مرورا بالتجارة والصناعة وغير ذلك حتى السير في الشارع. فلا يحق للفرد أن يمارس أي عمل إلا إذا أذن له القانون بذلك. فأين هي الحرية التي يتغنى بها هؤلاء؟ فبدلا من خضوعهم لله والتزامهم ما أمرهم به، واجتنابهم ما نهاهم عنه صار خضوعهم لمجلس النواب، والتزامهم بما يأمرهم به، واجتنابهم لما ينهاهم عنه.

اتخذوا نوابهم ومشرعيهم أربابا من دون الله.

فهل يستطيع هذا الإله الجديد أن يتولى هذه المهمة فيجلب بها السعادة للمؤمنين به؟ وهل هو مؤهل للقيام بهذا الدور العظيم

وللإجابة على هذا التساؤل، لا بد لنا من بحث هذا الواقع بحثا وافيا حتى لا نظلم ولا نُظلم. فالإنسان واقع محسوس. والمهمة الموكلة إليه كذلك واقع محسوس، مما يمكن الباحث من الوصول إلى الإجابة الصحيحة.

فالمشكلة القائمة هي كيفية تنظيم اندفاع الفرد في إشباع جوعاته العضوية والغريزية فإن منها

جوعات تتطلب الإشباع الحتمي وإلا فالهلاك، ومنها جوعات تتطلب الإشباع وإلا فالقلق والاضطراب وبالتالي الشقاء.

وهذه الجوعات العضوية والغريزية تحتم وجود علاقة مباشرة بين هذا الفرد الجائع وجهة الإشباع، أو الجهة التي تمتلك مادة الإشباع. وبالتدقيق في هذه العلاقات نجد أنها لا تتعدى أربع علاقات. هي العلاقة بينه وبين نفسه، كالأخلاق مثلاً فالإنسان يتصرف بأمور بينه وبين نفسه، فله طموح، ولديه أهداف فكيف يتصرف لنوالها، وهناك صفات يريد أن يتصف بها، فمن يحدد له أن هذه صفة حميدة أو أنها صفة ذميمة. وإلى أي مدى يستطيع الاندفاع في إشباع جوعة ما. وما هي الأفعال التي يجوز له أن يفعلها بنفسه لنفسه، وما هي الأفعال التي لا يجوز أن يفعلها، مع العلم أنه لا علاقة للآخرين بها. وهل يباح له إيقاع الأذى بنفسه أو أن ينتحر.

ثم هناك علاقة بينه وبين وسائل الإشباع، فأى المواد التي يجوز له أن يستعملها أو يشبع بها جوعة له؟ فأى المواد التي يجوز له أن يأكلها، وأي السوائل التي يجوز له أن يشربها. فمن أباح له شرب الماء وشرب الخمر وحرم شرب الهيروين وغيرها من المخدرات. ومن أباح أكل الميتة مثل لحم المعلبات التي تذبح ذبحاً غير شرعي. وهناك مئات الأمثلة في الأكل والشرب مثل الملابس، فما الأصناف التي يجوز لبسها وما الممنوع منها؟ ومن له صلاحية تحديد الجائز من الممنوع؟ ومثل ذلك الشم والنظر والكلام والسمع. فكلها حاجات تتطلب الإشباع فكيف يتم تنظيم العلاقات بين الفرد والأشياء التي يحتاجها.

وهناك علاقة بين الفرد وغيره من الناس كأفراد أو جماعات وعلاقته بالمجتمع الذي يعيش فيه. وتبدأ هذه العلاقة بينه وبين وزوجته فمن ينظم هذه العلاقة، ثم بينه وبين والديه، ثم بينه وبين بنيه، ثم بينه وبين المرأة- أية امرأة- وكذلك علاقة المرأة في العلاقات التي أشرنا إليها بالنسبة للرجل سواء بالمأكل والملبس وبالأخلاق. ثم علاقة الفرد رجلاً كان أو امرأة بالمجتمع الذي يعيش فيه، وعلاقته بغير المجتمع الذي يعيش فيه.

هذا هو المطلوب: أي تنظيم اندفاع الفرد في إشباع جوعاته العضوية والغريزية. وهناك اندفاع آخر لدى الفرد لإشباع جوعة من نوع آخر. تلك هي جوعة التدين، وهذه تحتم وجود علاقة بين الفرد ومعبوده. فمن المسؤول عن تحديد هذه العلاقة؟ أهو الفرد أم المعبود. فإن قلنا الفرد نفسه يعبد ربه كيف يشاء، فهذه يقتضي أن يكون الفرد عالماً بما يرضي معبوده. وهذا مناف للواقع.

فالمعروف بداهة أن الأعلى هو الذي يحدد علاقة الأدنى به.

فالحاكم هو الذي يبين للمحكوم كيف يتصرف تجاهه و الوزارة والدائرة و أرباب العمل هم الذين يحددون علاقات ويبينون لهم كيفية مخاطبتهم، والأسلوب الذي تتم به مخاطبتهم حتى انهم يحددون قيمة الطابع المالي الذي يجب أن يزين العريضة المرفوعة إليهم وهكذا.

وبهذا المثل تنتفي قدرة الفرد عن وضع نظام أو أسلوب يمكن الفرد من إشباع جوعة التدين إشباعاً صحيحاً.

ولهذا أجمعت حكومات العصر الحاضر ودولة على عدم التدخل في نظام العبادات وتركها مسؤولية ذلك على الكنيسة، أو على ما يؤمن الفرد به من كيفية أو أسلوب. وهذا ما يطلعون عليه فصل السلطة الدينية عن السلطة الزمنية، أو بتعبير آخر فصل الدين عن الدولة، أو فصل الدين عن الحياة.

ولنعد للحياة لنرى هل الفرد مؤهل لتنظيم تلك العلاقات التي أشرنا إليها آنفاً؟

لو أمعنا النظر في الإنسان من حيث هو إنسان، لوجدنا أن التركيب العضوي فيه ه هو نفسه، ليس هناك أدنى فرق بين إنسان وآخر. فالجميع يتمتعون بنفس الغرائز ولهم نفس التركيب العضوي في النمو والتكاثر، كما أن في كل منهم قوة عاقلة يستطيع أن يفهم بواسطتها ما يريد، ويميز فيها بين الخطأ والصواب ولكن بتفاوت. ومن هذا نجزم أن مشكلة الإنسان هي في كل عصر وفي كل مصر. فما يسبب الشقاء لسمير يسبب التعاسة لجورج، وما يجلب السعادة والطمأنينة لأحمد يجلب السعادة والطمأنينة لعمرو، لأن سبب الشقاء والسعادة متوقف على حسن تنظيم اندفاع الإنسان في الحصول على حاجاته وإشباع جوعاته. سواء وجد هذا الإنسان في أمريكا أو في أوروبا أو في أفريقيا أو في آسيا أو في أي بلد من البلدان. فالمشكلة في العالم، وعدم وجود حل لها سبب شقاء الناس وتعاستهم. فلم تستطع الحلول المطروحة جلب السعادة لأي شعب من الشعوب في العالم، أو تخفيف ما تعاني هذه الشعوب من ظلم وتعسف وشقاء وتعاسة. وكما أن هناك تفاوت بين الناس من حيث القوة والضعف. وهذا يترتب عليه التفاوت في الحاجة. سواء أكانت حاجة عضوية أو حاجة غريزية. فالمشروع لا بد له أن يكون على علم كامل بهذا التفاوت حتى يكون المعالجات التي يضعها مناسبة للجميع، وفيها الكفاية على إشباع حاجات الإنسان الأساسية إشباعاً كلياً، ويمكنه من إشباع حاجاته الضرورية والكمال دون إفراط أو تفريط. فهل في الناس من هو على هذا المستوى من العلم والإدراك؟

هذا من حيث المعالجات وكيف يجب أن تتم لمعالجة مشكلة الإنسان. أي تنظيم اندفاعه لإشباع جوعاته العضوية والغريزية. وكيفية حصوله على وسيلة الإشباع. وتحقيق أي الوسائل التي يحوز له أن يشبع جوعته منها، والتي لا يجوز.

وحين نلقي نظرة على الناس وعلى المجتمعات والكيانات السياسية القائمة في العالم نجد أن المعالجات المطروحة تختلف من مجتمع لآخر، فالقوانين التي تعالج مشكلة الإنسان في أمريكا تختلف عن المعالجة المطروحة في بريطانيا أو في فرنسا وتتناقض مع المعالجة المطروحة في الصين أو اليابان، كما تتناقض مع المعالجات والحلول في روسيا أو العالم الإسلامي.

لماذا هذا الاختلاف والتناقض؟ مع أن المشكلة واحدة، تنظيم اندفاع الإنسان في محاولة إشباع جوعته !!!

إن السبب في هذا الاختلاف والتناقض هو النتيجة الطبيعية للتباين والاختلاف بين آلهة العصر الجديد. فالإله الذي وضع التشريع لأمريكا، يختلف عن إله بريطانيا، وعن إله فرنسا، وأنصاف الآلهة في العالم الإسلامي.

إن هذا الاختلاف أمر طبيعي ما دام الإنسان هو الذي وضع هذه التشريعات ولما كان التباين والتناقض والاختلاف والتأثر بالبيئة، وتبدل الزمن هي أمور يخضع لها الإنسان خضوعاً حتمياً.

مثلاً، الإدراك والحكم على الأشياء والأحداث يتوقف على أمرين:

1- قدرة الدماغ على الربط بين الواقع والمعلومات المفسرة له.

2- الخلفية الثقافية التي يعتمد عليها في تفسير الواقع لمعالجته.

فالقدره على الربط أو ما يسمى بالذكاء، فإن التباين فيه واضح جلي لا يختلف فيه اثنان. وقد يوجد هذا التباين في القدرة بين الشقيقتين. فهذا تباين خلقي لا يملك الإنسان حياله القدرة على تغييره وإيجاد المساواة بين عقول البشر، كما أن هناك تباين خلقي آخر. فرقة الإحساس، وتيقظ الشعور وسرعة الانفعال أو البلبلة والخمول وتجر القلب- كما يقولون- أمور خلقية ينفعل الإنسان بها ولا يجوز الاستهانة بالإحساس ورقته، وتيقظ الشعور وتنبهه، فهو التيار الكهربائي الموصل للدماغ للعمل والربط. ولتمام العملية الفكرية للبحث عن المعالجات لا بد من معلومات يستعين الدماغ بها لفهم الواقع ووضع المعالجة المناسبة. إن هذه المعلومات يكتسبها الإنسان بالإخبار والتلقين والدراسة والبحث والربط والاستنباط والتجارب والاستنتاج. ومن البديهي أن هذه المعلومات تختلف كما ونوعا بين إنسان وآخر حتى لو كانا شقيقتين ولدا من رحم واحد وتناولوا نفس الغذاء وعاشوا نفس الظروف تستظلهم بيئة واحدة. فهذه حقيقة لا يمارى فيها. ولهذا كان الاختلاف حتمي نتيجة لهذا التباين الخلقي، ولهذا الاختلاف المكتسب. فمن نختار لنجعله إلها لنا يضع لنا نظمنا وتشريعاتنا، لينظم عملية اندفاعنا لإشباع جوعاتنا.

أضف إلى ذلك ما هو قائم أبد الدهر باختلاف وجهات النظر في الحياة. مما جعل الناس يختلفون في النظرة الأساسية للحياة، وبالتالي التناقض بين القواعد والمقاييس التي ينطلقون منها في عملية التفكير. فهناك من يرى أن القاعدة الأساسية في التفكير هي المادة، فهي مصدر التفكير، ومنها تأخذ نظام حياتنا، وتتطورها وتتطور النظم، فتغير وسائل الإنتاج يحتم تغيير علاقات الإنتاج وآخر يرى أن إعطاء الحرية المطلقة للفرد تمكنه من القيام بتنظيم علاقات الإنسان على الوجه الأكمل. ومنهم من يرى أن مجموعة من المفكرين يمثلون مجموع الناس يتولون وضع هذا النظام أو ذاك، فالاختلاف في هذه القواعد الأساسية يؤدي حتما إلى التناقض في المعالجات هذا يريد إطلاق الغريزة والحصول على أكبر المتع الجسدية، وهذا يرى أن الغرائز ليست سوى صفات مكتسبة أملت على الإنسان ظروفه الاقتصادية المعقدة. فلا بد من القضاء على هذه الصفات السيئة.

وقد يكون هناك اتفاق على القواعد الأساسية كما هي الحال في معظم دول العالم ومع ذلك فالاختلافات في الفروع بيّنة لا تحتاج إلى دليل. ففي بعض هذه البلاد من يرى إلهه (مشرعه) أن اللواط جريمة يعاقب عليها.

ومنهم من تراجع عن هذا ويصبح هذا العمل جائزا، ومنهم من ذهب لأبعد من ذلك فأجاز الزواج بين ذكراين أو بين امرأتين.

ومنهم من يرى العملية الجنسية بين الرجل والمرأة بدون زواج جائزة ومنهم من يشترط عدم الإكراه. ومنهم من يشترط سن في الرشد؟ ومنهم من يبيح الإجهاض ومنهم من يمنعه. ومنهم من يمنع الزواج بأكثر من واحدة، ويبيح تعدد الخيلات. ومنهم من يحرم الطلاق ومنهم من يبيحه. ومثل اختلافهم في العلاقة بين الرجل والمرأة فقد اختلفوا في جميع المجالات، في الحكم والسياسة والاقتصاد والأحوال الشخصية وغير ذلك حتى السير في الشارع اختلفوا فيه، فمنهم من يرى السير على اليمين، ومنهم السير على اليسار.

مع أنهم جميعهم متفقون على القواعد الأساسية التي ينطلقون بتفكيرهم منها. فأين الصواب؟؟ وهناك موضوع التأثير بالبيئة فالإنسان طبيعيا يتأثر بالبيئة التي يعيشها في جانبين: الجانب الطبيعي والجانب الإنساني. فالإنسان الذي يعيش في المناطق المدارية، لا بد وأن يكون للمناخ الذي يعيش فيه أثر على تفكيره حل مشاكله؟ وهذا يختلف تماما عن إنسان يعيش في المناطق

المعتد له، وهذا يختلف كذلك عن يعيش في المناطق الباردة، فللمناخ أثر بين على حياة الناس. وأما الجانب الإنساني فما من مجتمع إلا وفيه مخلفات من تقاليد وعادات ومفاهيم وأفكار توارثها الناس حتى أخذت في نفوس الناس دور العرافة والتركيز. ومثل هذا يجعل المشرع فيها حريصا على عدم مخالفة ما آمن به وما ورثه من عادات وتقاليد. حيث إن هذه العادات والتقاليد تبعث فيه مشاعر وأحاسيس قد تختلف كلياً عن تفكيره واستنتاجاته.

وعلى سبيل المثال لووجهت سؤالاً إلى إله (مشرع) هذه البلاد، الداعي إلى العلمانية، أو الديمقراطية- وكلها بمعنى واحد هل تقبل أن تزوج ابنتك من نصراني، أو هل تقبل أن ترى ابنتك تعاشر شاباً آخر معاشرة الزوجية، أو منتقلة بين هذا وذاك، مع أنها راشدة؟؟ فإنه حتماً سينتفض. وقد يستشيط غضباً، ولو حصل ذلك فإنه من الممكن أن يقدم على قتلها. فهذا مثل بسيط يبين مدى التأثير بالبيئة على عقلية الشرع وتفكيره.

ولما كانت المشكلة الإنسانية واحدة، والمطلوب حل صحيح واحد يؤدي ذلك الحل إلى السعادة والرفاه للإنسان. واختلاف الحلول للمشكلة الواحدة إنما يعني أنها جميعها حلول خاطئة. وأن المجتمع الذي نظم حياته على أساس تلك الحلول. إنما كان ينظم حياته على أساس خاطئ.

ومن الجدير بالذكر ما يلاحظ بين الحين والآخر قيام الإله (المشرع) بتعديل المادة الفلانية من القانون أو من الدستور لأنه ثبت لديه فسادها وبطلانها. ثم يجري بعد التعديل تعديل ثم بعد التعديل تبديل. أفلا يعني ذلك أن الناس كانوا يعالجون مشكلتهم علاجاً خاطئاً.

ونخلص إلى القول أن الإنسان- فرداً أو جماعة- هو أعجز من يلم بمشاكل الناس جميعها وأقل من أن يضع لها الحلول الصحيحة. فان ذاتيته العقلية والنفسية ومعلوماته المكتسبة وبيئته التي ترعرع فيها تؤثر عليه تأثيراً مباشراً وتكون الحلول التي وضعها تتناسب مع واقعه هو، لأمع واقع غيره من الناس. ولا مع مجتمعه، ولا مع المجتمعات الآخرين.

فيكفي هراء. فالمشرع لا بد أن يكون عالماً بنفسية الإنسان والخواص المكون منها فلا يأفل ولا يغيب.

ولذا نبذ إبراهيم عليه السلام ربوبية الكوكب و ربوبية القمر و ربوبية الشمس لأنها لا تصلح أن تكون إلهاً يشرع للناس قوانينهم، وينظم للناس علاقاتهم.

(هل يسمعونكم إذ تدعون، أو ينفعونكم أو يضرون) الشعراء 73 /72 .

وقبل أن انتقل من هذه الصورة وددت أن أذكر أن هذا الأساس هو الذي تقوم عليه الديمقراطية حيث أن المعنى الحقيقي الوحيد للديمقراطية هو السيادة للشعب، أي أن الشعب هو الذي يضع دستوره ويضع قوانينه، فالهيئة التأسيسية تضع الدستور، ومجلس النواب يضع القوانين. شريطة أن يكون الأساس في التشريع حرية الإنسان. ويكون الخضوع المطلق للدستور والقانون. أي أن هذه المؤسسة التشريعية هي الإله الذي يأمر فيطاع. يجوز ويمنع. بموجب كتابه المقدس الدستور والقانون. وما على الناس إلا إعلان الطاعة والعبودية والتقديس لهذا الإله الجديد. هذه هي الديمقراطية، وليست كما يحاولون تصويرها، والتي يتبرك بها الناس كأنها المنقذ ومفتاح السعادة إنها ليست حكم الأكثرية كما يدعون، بل هي حكم الأقلية، ولنفرض أنها حكم الأكثرية، فان ذلك لا يعني أنها حق.(وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك). الأنعام 116..... >> راجع كتاب

الديمقراطية وحكم الإسلام فيها للمؤلف>> "كما أنها لا تقوم على الشورى. بل أن الشورى ليست نظام حكم و لا نظام اقتصاد ولا نظام اجتماع. إنما هي أسلوب يستعمله كل إنسان حين يحزبه أمر، أو حين يحتار في مسألة لمعرفة الرأي الصواب في تلك المسألة، يلجأ إلى من يظن أن عنده الرأي الصائب. سواء أكان الرأي المطلوب تشريعياً أو فقهيّاً أو علمياً أو فنياً. فالعودة إلى ذوي الاختصاص فلا عبرة في الأكثرية أو الأقلية.

وما يدعونه من حرية الكلمة. فإنما هي إجازة من المشرع للفرد أن يقول رأيه في بعض الأمور مع أن الأصل في معالجة هذه المسألة- الكلمة- فإنني لا أتوقف فيها عند إجازة المشرع للقول إن الكلمة تكون واجبة في بعض الأحيان ولا ينتظر إذن المشرع وإجازته. وقد تكون مندوبة يستحسن القيام بها وقد تكون لا يجوز التقوه بها. ولو كان القائل داخل غرفته لا يسمعها أحد. وقد يكون القائل بالخيار بين القول والامتناع.

فأداء الشهادة على وجهها. وقول كلمة الحق أمام سلطان جائر، ومثلها تكون الكلمة واجبة لا يجوز السكوت <<والساكت عن الحق شيطان أخرس>> قول لأبي علي الدقاق.

والدعوة لأمر طيب وخلق حميد، والإجابة على مسألة أمر حسن يندب القيام بمثله وشهادة زور أو غيبة أو وشاية فهذه وأمثالها أمور محظورة. وما سوى ذلك فالإنسان بالخيار بين القول والسكوت.

فأين هي حرية الكلمة التي يتغنون بها؟ كفى دجلاً يا دعاة الحرية، ومزيذاً من الوعي يا معشر المسلمين. وعلى مثل هذا المنهج سار الأنبياء المذكورون في السورة والذين قال الله تعالى فيهم (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) الأنعام 90 وطلب من رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم أن يسير على نفس المنهج الذي ساروا عليه. ويخاطب قومه الذين لم يعرفوا قدر الله. والذين يدعون أن الله لم ينزل على بشر من شيء ويرد على افتراءهم بسؤال استنكاري (قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى... الآية) الأنعام 91 و يجيبهم قل الله . ويقول لهم إن هذا القرآن أنزله مصداقاً لما لين يديه، وينذر أم القرى ومن حولها.

ويرد على النضر بن الحارث أحد زعماء مكة الذي ادعى أنه يستطيع أن يأتي بمثل هذا القرآن. ومن يدعي أن الله أوحى إليه ولم يوح إليه شيء.

وتستمر الآيات بالتهديد والوعيد بيوم الحساب يوم لا يجدون لهم ولداً نصيراً. وتبين جلال الله وعظمته وما تقتضيه الألوهية من صفات.

ثم يعود لينهى النبي والمسلمين عن سب آلهة الكفار لأنهم قالوا << لتنتهين عن سب آلهتنا أو لنهجون ربك>> قال ابن عباس فنهاهم الله أن يسبوا آلهتهم. لأن المسألة ليست سباباً وشتائم وإنما نقاش عقلي. ولما أعجزهم الرد الفكري أقسموا أنهم لو جاءتهم لأمنوا. قل لهم يا محمد أن الآيات عند الله . وأنهم لن يؤمنوا حتى لو جاءتهم المعجزة تلو المعجزة. وحتى لو نزل الله إليهم الملائكة وكلمهم الموتى.

وجمعنا لهم كل شيء ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله. فلا تيأس يا محمد لأنها مشيئة الله . وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ، وان تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون (الأنعام 115/116.

يحق لنا أن نقف ملياً عند هذه الآية القطعية الثبوت القطعية الدلالة. (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك الله عن سبيل الله). نسوق هذا الكلام من رب العالمين إلى أحيائنا المؤمنين ، إلى أبنائنا المفكرين، إلى المسلمين المضللين، إلى الخلق أجمعين الذين بهرتهم كلمة الأكثرية فعمت بصيرتهم، وجعلوها قاعدة لكل أمر ، ومقياساً للصواب. والله سبحانه وتعالى يقول (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله).

إنه وبالرغم من وضوح الدلالة وقطعيتها لا بدلنا من فهم هذه الدلالة مع تسليمنا المطلق بصدقها وصحتها. وهذا يتطلب إلقاء نظرة فاحصة على واقع الناس في كل عصر وفي كل مصر. ولما كان من المتعذر معاينة ذلك في كل العصور وفي كل المجتمعات فيكفينا أن نتفحص المجتمع الذي نعيش فيه، أو المجتمعات المعاصرة، لنصل إلى الحقيقة.

إن المسائل التي تجابه الإنسان وتستعصي عليه حلها، أو يختار في أي حل يختار، كثيرة جداً ولكننا ندرجها تحت قواعد معينة من المحتمل أن تكون شاملة أو قريبة من الشمول.

أ- إن أبرز المشاكل وأكثرها تعقيداً مشكلة تنظيم سلوك الأفراد وضبط تصرفاته بقوانين وتشريعات تبين ماله من حقوق وما عليه من واجبات. فمن اعترضته مشكلة تتعلق بهذا الأمر. إما لمعرفة حق له، أو لمعرفة ما يجب عليه. سواء أكان فرداً يريد تصريف عمله أو إشباع حاجة له، أو تحقيق رغبة تراوده. أو كانت من مسؤول يريد تنظيم أمور رعيته وتحديد ما عليهم من واجبات، وما لهم من حقوق.

فلمن يلجأ هذا الإنسان لبيان الحل الصحيح. هل يلجأ لأخذ رأي الأكثرية. أم أنه يلجأ لأهل الاختصاص بهذا الأمر- الأمر القانوني أو التشريعي- إن كل ذي عقل يرى أن عليه الرجوع لأهل الاختصاص. ومن البديهي أن هذا الصنف من الناس قلة قليلة لا تساوي واحد من الألف من مجموع الناس- هذا جانب- أما الجانب الآخر: فلو سلمنا جدلاً أنه جمع كل أصحاب الاختصاص في هذا الفن، وطرح عليهم مسألتهم، وأدلى كل بددوه فيهما، وتعددت فيها الآراء، فهل يأخذ برأي الأكثرية، أم أنه يتحرى الصواب في تلك الإجابات بناء على الأدلة التي اعتمد عليها أصحابها، بغض النظر أنها كانت من واحد منهم، أو من أكثريتهم.

إذن في المسائل الفقهية الشرعية والقانونية لا يجوز أن ينظر فيها لرأي الأكثرية لا من الناس ولا من أهل الاختصاص، فإن حصل ذلك فإنما هو الضلال بعينه (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله).

وهذه المشكلة هي أم المشاكل جميعها، وقد سبق وبيننا أن المشكلة الأساسية هي كيفية تنظيم سلوك الفرد حين إشباع جوعه من جوعاته العضوية أو الغريزية. وهي المشكلة الأساسية في تنظيم حياة الناس في المجتمع، علاقاتهم مع البعض، وعلاقاتهم مع غيرهم من الناس في مجتمعهم، وعلاقة مجتمعهم مع غيره من المجتمعات، ووجود كياناتهم السياسي وعلاقتهم به، وعلاقة كياناتهم السياسي بغيره من الكيانات فكلها تدرج تحت أساس واحد هو تنظيم علاقات الناس.

ولما كانت هذه القاعدة الأساسية لا يصار فيها إلى رأي الأكثرية وإلا فالنتيجة الحتمية الضلال. (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك). فإن غيرها أقل شأنًا منها ومع ذلك لنلقي نظرة سريعة على غيرها.

الأمر الفني. الشأن التعليمي ونظمه ومناهجه وبرامجه. الشأن الصحي والرعاية الصحية. من مصحات ومستو صفات ، وأطباء ومسعفين. وفحوص ومختبرات، وإجراء عمليات ونقل أعضاء. وغير ذلك الشأن الأمني في الداخل أجهزة الشرطة والمخافر وصلاحياتها. وفي الخارج الجيش وتنظيماته وعدده ومهامه. الشأن الاقتصادي، صناعة وزراعة وتجارة وفنونها إلى غير ذلك من الشؤون الفنية التي تساعد على تنظيم حياة الناس، وتوفير الحاجات الأساسية والحاجات الضرورية لهم. فهل يلجأ القائلون على رعاية شؤون الناس إلى الناس جميعا لوضع النظم الإدارية والفنية و أخذ رأي الأكثرية؟ أم انهم يلجأون في كل فن لأهل الاختصاص في ذلك الفن؟

ومع ذلك فإنهم حين يلجأون لأهل الاختصاص لا يأخذون برأي الأكثرية بل يعتمدون على الدراسة العميقة لهذا الفن أو ذاك ولو كانت من فرد واحد منهم. وهذا الواقع نلمسه جميعنا في بلاد الدنيا فأين هي الأكثرية التي يتغنون بها. ولو فعلوا ذلك لكان الضلال بعينه كما جاء في الآية الكريمة (وان تطع أكثر من في الأرض يضلوك)..

الأمر الفكرية. شأنها شأن سابقتها، فلا ضرورة لإعادة.

ألا ترى يا أخي أن هذه الآية سلاح حاد في يدك للرد على تلك الأبواق الداعية لكذب كبرى وما يسمونه رأي الأكثرية فأين هي. ألا ترى يا أخي أنها سلاح فعال يقوض ما يحاول دعاة الديمقراطية بناءه في نفوس أبنائنا، حتى بلغ بهم الحال للدعوة إلى فقهاء المسلمين وعلمائهم للنظر في الاختلافات الفقهية القائمة بين المسلمين لإزالتها وجمع كلمة المسلمين على رأي فقهي واحد ويتبع في ذلك رأي الأكثرية بنسب الدعوة وبئس الداعي لها.

وجمع كلمة المسلمين على رأي فقهي واحد مخالفة شرعية. ودعوة خرفاء لا تنم عن وعي إسلامي والأمر الوحيد الذي يجمعهم على رأي فقهي واحد في العلاقات العامة وجود إمام يتبنى حلا معينا يكون تبنيه لذلك الحكم ملزما للجميع ظاهرا وباطنا.. أما في العلاقات الشخصية في الأخلاق والعبادات فإن الخليفة لا يتبنى حكما معينا ملزما لأن فيه حرج كبير على المسلمين. فليبق كل فرد على مذهبه في العقائد والعبادات والأخلاق أو ليرجح ان استطاع الفرد ذلك، أو أن يجتهد لنفسه ان كان عنده القدرة على الاجتهاد.

لله ما أعظمها من آية (وان تطع أكثر من في الأرض يضلونك عن سبيل الله).

وننتقل بنظرنا إلى آيات أخرى لنقف عندها لمعرفة إمكانية إنزالها على الأحداث الجارية. لأن المطلوب هو سلوك بنهج القرآن الكريم في الدعوة. (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر)، (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم)، (وجاهدكم به جهادا كبيرا)..

قال تعالى: (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه.. الآيات إلى قوله تعالى: (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق الآية) الأنعام 118/121

قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال المشركون للمؤمنين إنكم تزعمون أنكم تعبدون الله. فما قتله الله- يريدون الميتة- أحق أن تأكلوه مما قتلتم أنتم فنزلت الآية (ومالكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه).

فقد كان كفار مكة يجادلون المؤمنين في أكل الميتة ويقولون إن الميتة قتلها الله. والذبيحة يذبحها

الإنسان فكيف تحرمون ما قتله الله وتبيحون ما قتلتم أنتم فإن ما قتله الله أولى بالأكل من التي قتلها الناس.

فما أشبه اليوم بالبارحة. إلا أن الفارق كبير من حيث أن المجادلين كانوا من المشركين. وسواء كانوا مؤمنين بما يدعون، أم هو من الأساليب التشكيكية الخبيثة لزعة عقيدة المسلمين. بينما المجادلون اليوم في أكل لحم المعلبات من أبناء أمتنا، ومن المعتقدين بعقيدتنا، بل ومن الملتزمين بالعبادات. فهم يقولون كما كان يقول كفار مكة إن لحم المعلبات أنظف وأطهر. فإنه لم تمتد إليه يد إطلاقاً. تذبحه وتسليخ جلده وتعريه من عظمه وتعليه الآلة. فأيهما أفضل وأطهر، وأما الذبح في المسالخ وما أدراك ما المسالخ. هيا وانظر إلى مكان الذبح. ولكن عليك بأن تغلق انفك قبل الدخول، وأن تكون على غنى من حذائك، فقد تعود بدونه، أحذر على ملابسك. ولا تنسى ان تلقي نظرة على القصاب. فإن فعلت، فلست أنا مسؤولاً عن تحريمك اللحم على نفسك. إذ لا يمكنك أن تتصور الهيئة التي هو فيها، وقد تجمد الدم على كل بقعة في بدنه، فلا يمكنك معرفة لون ملابسه الأصلي، فقد توحدت الألوان، بلون الدم المتجمد. وأما عن نفسيته وسلوكه فإن ما تسمعه من ألفاظ يتبادلها القصابون فيما بينهم تجعلك على يقين تام بأن أمثال هؤلاء الناس لن يخطر ببال أحدهم ان يذكر اسم الله على ذبيحته حين يضجعه في هذه الأوحال، ويضع رجله على صفحتها، ويأخذ سكين ليقطع بها أوداج تلك الشاة. أهدأ أولى أم تلك التي تدخل الذبيحة على المسلخ محمولة على الآلة لتمر بها على الضرب والسليخ والتشفيه من العظم فلا تخرج إلا وهي معبأة في هذه العلب لم تمتد إليها يد إنسان. أهذه أولى أو تلك. هذا ما يجري الجدل به اليوم من أبناء جلدتنا؟.

إن الاحتكام إلى العقل واتخاذ المقاييس المادية في الحكم على تنظيم علاقات الإنسان عند قيامه في محاولة إشباع جوعه له في منتهى الخطورة. وقد كان له الأثر السيء على جمهرة المسلمين مفكرين وعامة مما أدى إلى انتشار أنواع شتى من اللحوم المعلبة، وقد غاب عنهم نتيجة لذلك حكم التذكية أي الذبح الشرعي و شخصية الذابح. فالذابح يشترط فيه أن يكون مسلماً أو كتابياً فذبيحة الشيعي أو المجوسي أو الهندوسي أو الدرزي لا تأكل ذبيحته، وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المجوس قال: >> سنوا بهم سنة أهل الكتاب غير أكل ذبائحهم ولا ناكحي نسائهم << الطبراني. هذا من حيث الذابح سواء ذكر اسم الله عليها وكبر، أو نسي. وإن كان ذمياً فهو يذكر كما في شريعته، ونحن حين نأكل ذلك نبدأ بالتسمية. وكفى. هذا من حيث الذابح. وهنا لا بد من ملاحظة هامة. فلا يصح أن يقال أن ذبح الآلة والطريقة المتبعة في المسالخ الأوروبية، أو معامل التعليب هو ذبح شرعي لأن النصاري أقروه أو أقرته الكنيسة، لأن المراد بقوله تعالى: (وطعام الذين أتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم) المائدة 5. فالمراد هنا الطعام الذي أقرته شريعتهم. وليس الطعام الذي يستعملونه في حياتهم. فإن هذا ليس بالطعام الذي أقرته شريعتهم.

ولنضرب مثلاً لتقريب وتوضيح حكم التذكية. فالتذكية أن يقوم القصاب بذبح الشاة أو البقرة أو البعير، أو الطير من الأمام وليس من الخلف فيقطع البلعوم والقصة الهوائية والودجين ليكن سبب الوفاة من قطعها. أما لو قطعها من الخلف فسيكون سبب الوفاة قطع النخاع الشوكي وفي هذه الحال لا تعتبر العملية تذكية، وتكون الذبيحة ميتة لا يجوز أكلها. وهذا حكم توقيفي لا يسأل لم، بل التسليم المطلق.

فلو هاج ثور أو جمل فأطلقنا عليه رصاصة أصابت منه مقتلاً فمات ولم ندرك ذكاته فإنه يصبح ميتة ولا يجوز أكله. ولو أن أحد الناس طعن شاة بسكين أو سيف قطع رأسها ونزف دمه، ولم تذك فإنها تصبح ميتة. وقول الله تعالى صريح وواضح. (حرمت عليكم الميتة... والمتردية

والنطيحة إلا ما ذكيتم الآية) المائدة 3

بينما أجاز لنا الشارع ذلك في الصيد. فالصياد يطلق سهمه أو رصاصته على طريدته فيريدها قتيلة ولا يدرك ذبحها، ومع ذلك فهي جائزة حلال أكلها.

ولست أدري لم سكت علماء المسلمين عن هذه المسألة. فهل يجهلون هذا الحكم مع أنه مما يعلم من الدين بالضرورة. أم أنه عدم إدراك واقع ما يجري في معامل التعليب، مع أنها أصبحت معروفة للقاصي والداني. أم أنه لا يسمح لهم بإبداء الحكم الشرعي في هذه المسألة وأمثالها.

إن عبارة- ذبح شرعي- أو عبارة- ذبح على الطريقة الإسلامية- أو- ذبح حلال- إن هذه العبارة وأمثالها لها مدلولات بعيدة، ووجوه متعددة. فقد يقول قائل إن هذه العبارة وضعت زورا وبهتانا ولا وجود لمدلولها إطلاقاً، ويستدلون على ذلك ببطاقات وجدت في معلبات السرددين على حد زعم القائل. يقولون أنهم وجودها في علب الصلصة والمرببات. على حد زعمهم. و منهم من يقول إن وفوداً من العلماء زاروا المعمل الفلاني واتفقوا معه على طريقة الذبح، وآخرون يؤكدون أن ماركة اللحم المعبأ الفلانية ملتزمة تماماً بالذبح وهكذا، فهناك العديد من الأقوال. و لست بصدد مناقشة أقوالهم، كما أنني لست بصدد بيان أن هذه الشهادة كافية، أو ليست كافية، ولا بصدد بيان شهادة الكافر مقبولة في مثل هذه الأمور أو ليست مقبولة. فهذه مهمة الفقهاء والعلماء.

وقد يقال أنهم رأوا السداجة فينا. فكتبوا هذه العبارة تحقيقاً لمصالحهم. أو غير ذلك من الأقوال.

والذي يهمني في هذا الأمر. هذا الثقل العظيم للإسلام والمسلمين وما له من أثر على العالم. فبالرغم من الضعف الظاهر على المسلمين أفراد وكيانات. وعدم التزام غالبيتهم بالمقياس الشرعي في حياتهم، بل وعدم احتكامهم للشرع في كياناتهم. ومع ذلك تخضع الشركات والمعامل لوضع هذه العبارة تحقيقاً لمصالحها وبحثاً عن منفعتها.

فأين هذا من موقف الكيانات، الكيانات القائمة في العالم الإسلامي، من مسألة التلوث. أنهم يريدون تحميلنا جريمتهم في تلوث بيئتهم. ويحاولون فرض ضريبة على النفط أطلقوا عليها بكل وقاحة ضريبة التلوث.. وكأننا نحن الذين أقمنا المصانع والمعامل في بلادهم، وأن آلياتنا هي التي تقوم بحرق الزيت وتتسبب بتلوث أجوائهم. قليلاً من الحياء، وأنت آيتها الكيانات المنتجة للنفط قليلاً من الكرامة. فقد طفح الكيل وبلغ السيل الزبا. ولتذهب آلياتهم ومصانعهم ومعاملهم إلى الجحيم.

وتمضي السورة إلى مشاهد أخرى بعد استرسال بالترغيب والترهيب. وبيان بعض جوانب العقيدة وأن الأمر كله لله . إلى أن تتناول مواضيعاً أخرى من العادات والتقاليد وما عليه الناس من علاقات فاسدة في حياتهم اليومية.

الموضوع الأول: أنهم جعلوا من زروعهم وأنعامهم حصة لله وحصة لآلهتهم، يقول ابن عباس رضي الله عنهما >> إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً أو كانت لهم ثمرة جعلوا لله منه جزءاً وللوثن جزءاً، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه، وإن سقط منه شيء فيما سمي الله ردوه إلى ما جعلوه للوثن وقالوا : إن الله غني والأصنام أحوج لهذا>>. ومثال هذا قال مجاهد رضي الله عنه. وأضاف فإن أصابهم قحط أكلوا نصيب الله، وتحاموا نصيب شركائهم. ساء ما يحكمون. الآية من قوله تعالى: (وجعلوا لله مما درأ من الحرث والأنعام.. إلى قوله تعالى... ساء ما يحكمون) آية 136.

ألا يشبه هذا ولائم وموائد رمضان عند الزعماء وأصحاب الشأن. وتركهم أجل الفروض وأعظمها.

أما الموضوع الثاني يظهر في قوله تعالى: (وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم..) الآية 137.

ذكر القرطبي في تفسيره أن رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يزال مغتما بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له الرسول : مالك تكون محزوناً؟ فقال يا رسول الله إني أذنبت في الجاهلية ذنبا فأخاف أن لا يغفره الله لي وإن أسلمت!! فقال له: أخبرني عن ذنبك ، فقال يا رسول الله: إني كنت من الذين يقتلون بناتهم ، فولدت لي بنت فتشفعت إلي امرأتي أن أتركها فتركها حتى كبرت وصارت من أجمل النساء فخطبوها، فدخلتني الحمية ، ولم يحتمل قلبي أن أزوجها أو أتركها في البيت بغير زوج، فقلت للمرأة أريد أن أذهب لزيارة أقربائي فابعثها معي، فسرت بذلك وزينتها بالحلي والثياب، وأخذت علي الموائيق بألا أخونها، فذهبت بها إلى رأس بئر، فنظرت في البئر، ففطنت الجارية بأني أريد أن ألقها في البئر، فلتزمتني وجعلت تبكي فرحمتها، ثم نظرت في البئر ، فدخلت علي الحمية حتى غلبني الشيطان، فألقيتها في البئر منكوسة ، ومكنت هناك حتى انقطع صوتها فرجعت ، فبكي رسول الله صلى الله عليه وسلم و أصحابه وقال لو أمرت أن أعاقب أحد بما فعل في الجاهلية لعاقبتك.

هذا الواقع الذي كان موجودا في الجاهلية، و قد تصدت له الآيات المكية لأنها إنما كانت تنزل على الوقائع والأحداث لتبين مفاصلها وبطلانها. وإنه وإن كانت العقيدة هي الأساس، وهي القاعدة التي تنبثق عنها المعالجات، وتسير بحسبها التصرفات إلا أن مناقشتها ولفت النظر إليها، يتطلب جهدا فكريا، ومناقشات عقلية، يقتصر بحثها على فئة قليلة من الناس، كما أنها تتطلب إحساسا مرهفا يجسد الوقائع والأحداث، كي يتناولها العقل بالبحث والتمحيص. إلا أن الأسلوب الحكيم يقضي بلفت النظر إلى الواقع المعين أو الحدث فيجسده، ويظهر الجوانب المثيرة فيه ليصبح هذا التجسيد مطرقة تضرب على الدماغ لإرغامه على التفكير والبحث، فكيف إذا كان الواقع أو الحدث هو جزء من حياة الناس، وعلاقة سائدة في مجتمعهم، لا تتطلب الكثير من العناية لشد انتباه الناس لها. ولذلك حين خاطبهم الله تعالى بهذا الآيات (وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم... الآية)، أو في قوله تعالى: (وإذا الموؤدة سئلت بأي ذنب قتلت) كانت هذه العبارة القصيرة كافية لأن تهز مشاعرهم وتوقظ إحساسهم. فتدفعهم على التفكير.

ولئن كانت قوانين الجاهلية وأعرافها تجيز القيام بهذا العمل حرصا أو خوفا على الأعراض فإننا نجد اليوم على النقيض من ذلك تماما. فقد قام إليه الناس الآن < البرلمان > بوضع تشريعات مناقضة تماما لما كان سائدا. فقد رفع المسؤولية عن الأب بل عن الأهل جميعا فأباح الزنا الاختياري الراشد. وفرض على الأهل عقوبة زاجرة إن تعرض أحد من الزناة إلى أي أذى. حماية قانونية للزناة، ومع ذلك لم تطرف لها عين، ولم يهزها شعور، ولم تحرك إحساس أحد.

وأن القانون الوضعي في العالم الإسلامي بكامله يبيح الزنا للشباب أو الفتاة على الشروط التالية

- 1- أن تكون الفتاة بالغة سن الرشد . 2- أن تكون بالرضا والاختيار.
- 3- أن لا تكون في مكان عام. فلو توفرت هذه الشروط لفتاة ما فارتكبت الفاحشة. ولكنها خافت من أهلها، فاصطحبت صاحبها إلى القضاء واعتراف بما فعلاه. فماذا سيفعل القضاء إنه سيخلي سبيلهما. و تجيب الفتاة لا أن أهلي سيقتلونني. فعلى القضاء في مثل هذه الحال حمايتهمما وأخذ

المواثيق على أهليهما بعدم التعرض لهما بأي سوء.

إننا حين نستنكر وأد البنات، مع إننا لم نشاهده ولم نحس بفداحته إلا تخيلا وتحيدا في الذهن. ونضرب الذكر صفحا عن واقعنا الأليم، بل نقف مؤيدين مصفقين مهنيين لأعضاء البرلمان بما تفضلوا علينا من تشريعات وقوانين تحفظ لنا أعراضنا ، وتصون لنا كراماتنا. وتنظم لنا سلوكنا وتصرفاتنا. نعم هذه هي الديمقراطية المبنية على قداسة الحرية. الحرية الشخصية أمر مقدس لا يجوز المساس به أو الاعتداء عليه فليمارس كل فرد حريته شرط أن لا يعتدي على حرية غيره، فليزني، فليلو، فليسكر، ولكن عليه أن يكون حذرا من الإكراه أو الإساءة لأحد.

أما الموضوع الثالث فقد بينت الآيات مسألة جديدة ظاهرة فسادها وبطلانها واقتراءهم على الله في ذلك فقد جعلوا لهم تشريعا ينظم بعض علاقاتهم زاعمين أن الله هو الذي أمر بذلك فكشفت الآيات هذا الزعم وفضحت بعض قبائحهم وإجرامهم. فلقد نذروا بعض الزروع وبعض المواشي وقالوا إن هذه لآلهتنا فلا يطعم منها إلا سدنة الآلهة وخدمها. و أنعام أخرى حرّموا ركوبها، وأخرى لا يذكرون عليها اسم الله عند الذابح. كما أنهم نظموا تشريعا آخر في الموضوع نفسه فقالوا إن ما في بطون الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على إناثنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء.

(وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم... الآيات إلى قوله تعالى قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرّموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين) الأنعام 140.

أليست هذه الآيات تقرّيا صريحا للهيئات التشريعية التي تقوم على تنظيم حياة الناس فيجبون ما حرم الله، ويحرّمون ما أباح فلو نظرنا في مجمل تشريعاتهم لوجدنا أن فيها كبير شبه بينهم و بين! الجاهلية الأولى.

فقد أباحوا الخمر صناعة وتجارة وشربا وقد حرّمها الله بعشرة وجوه من استعمالاتها. (إنما الخمر والميسر والأنصاب رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه) المائدة 90. ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم >> حرم في الخمر عشرة عاصرها و معتصرها.... حتى يعدد العشر <<، أنهم لم يكتفوا بإباحة الميسر الفردي بل قامت الدول بالمقامرة - اليانصيب- لسلب أموال الناس، وأباحت لكثير من المنظمات، مزاوله هذه اللعبة الملعونة..

ومن الطريف أنهم حرّموا المخدرات على كافة أنواعها و أباحوا الخمر بكافة أنواعها. وأباحوا الزنا المشروط بالموافقة والرشد ويهاجمون ويحرّمون الزواج بأكثر من واحدة كما أباحوا الربا وأباحوا الشركات المساهمة وفرضوا على الناس ارتكاب المحرمات كالإلزام بعقود التأمين على السيارات وغيرها، وحرّموا على الناس استيراد حاجاتهم وأجبروهم على دفع الجمارك والمكوس ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا يدخل الجنة صاحب مكس رواه أبو داود. وأباحوا الاستئثار بأموال الملكية العامة، وحرّموا منها أصحابها أي عامة الناس الذين هم أحوج الناس .

فلم تترك الهيئات التشريعية مباحا للمسلمين إلا قيده أو حظرته أو فرضت عليه الضرائب المرهقة. وما تركت محرما على المسلمين إلا أباحتها وشجعت الناس على ارتكابه أو أجبرتهم عليه كما في مسألة التأمين وفتح الاعتمادات. و الأقراض والاقتراض بالفوائد الربوية. (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرّموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما

كانوا مهتدين) الأنعام 140.

وكما يجب أن يكون، أي ربط الفروع بالأصل، فقد بينت الآيات التي تلت ذلك أن الحرث وما ينبت منه من أشجار و ثمار و زروع، فإن الله هو الذي أنشأها وليس من حق أحد أن يبيح هذه ويحرم تلك. كما أن المواشي والأنعام هي مما خلق الله للناس للانتفاع بها، حمولة وفرشا وغذاء.

وقد بينت أن الله سبحانه وتعالى خلق للناس أربعة أصناف من المواشي التي يأكلونها ومن كل صنف ذكر وأنثى. فمن صاحب الحق في أن يبيح هذه ويحرم تلك.

(هو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات..... الآيات إلى قوله تعالى فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم أن الله لا يهدي القوم الظالمين). الأنعام 141/144

وتستمر الآيات في الربط بين العقيدة والأفعال و تتحدى الذين أشركوا بأن يأتوا بمن يشهد أن الله حرم هذه الأشياء التي حرموها

فإن شهدوا فلا تشهد معهم، ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون.

إذ لا بد من نبذ هؤلاء الذين ساووا بين الله والناس، وخولوا لأنفسهم حق التشريع في الإباحة والتحريم.

وما أروع ما انتهت إليه هذه المحاوراة بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين من جعلوا مع الله مشرعين ومقتنين، يريدون تنظيم حياة الناس على هواهم. فتوجه الخطاب لهؤلاء الناس وأمثالهم لتبين لهم ما حرم الله. فبعد أن بينت فساد ما هم عليه وضعت له البلمة الشافية مرتبطة بالعقيدة، مؤكدة أن هذا هو ما يرضي الله.

(قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم) الآيات إلى قوله تعالى : (وأن هذا صرا طي مستقيما فاتبعوه... لعلمكم تتقون) الأنعام 153 .

- الإشراك بالله.
 - عقوق الوالدين.
 - قتل الأولاد بسبب الفقر.
 - اقتراف الفواحش ما ظهر منها وما بطن.
 - قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق.
 - أكل مال اليتيم.
 - النقص في الوزن والكيل.
 - شهادة الزور.
 - وخيانة العهد.
 - اتباع السبل التي تبعدنا عن شريعة الله.
- وتختتم السورة بالرد على دعوى المشركين بقولهم لو أنزلت الكتب السابقة علينا لكانا أفضل منهم. أو لم يروا أن هذا القرآن حجة عليه فيه هدى ورحمة ويتبع ذلك بالتهديد والوعيد للمكذبين

وتقرر حقيقة فتطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلنها صريحة ويبين ما هو عليه. (قل إنني هداني ربي إلى صراط المستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين، قل إن صلاتي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) الآيات إلى نهاية السورة. الأنعام 165/161

وقد جعل هذا القول دعاء استفتاح في الصلاة، يبدأ به المسلم في بدء صلاته يستفتح به. إلا أنه وللأسف الشديد جعلنا نكذب على الله كل يوم كلما قمنا للصلاة. نكذب حين نقول قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. نعم قد نكون صادقين بقولنا صلاتي ونسكي مع التحفظ إلا أننا حين نقول ومحياي ومماتي لله رب العالمين.

إن الكثير من الناس المؤمنين يحيون بالإسلام ويعالجون مشاكلهم بأحكامه ملتزمون بأوامر الله في شؤونهم الخاصة. نعم أنهم يعيشون في الإسلام، ويسيطرون بحسبه باعتباره الطريق القويم والصراط المستقيم. فمعالجاته صحيحة.

ولكن القلة القليلة من هؤلاء يعيشون للإسلام، نذروا حياتهم ومماتهم لله تعالى. وهناك فرق كبير بين من يعيش في الإسلام ومن يعيش للإسلام وفقنا الله وهدانا للعيش بالإسلام والعيش للإسلام حتى لا نكذب ونحن نقول (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين). خاتمة

(أفلا يتدبرون القرآن ، أم على قلوب أقفالها).

(إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً).

إن التدبر للقرآن لا يعني الاختصار على حفظه واستظهاره وإجادة قراءته وفهم معاني الآيات واستنباط الأحكام، أو معرفة الصرف والنحو في اللغة ومعرفة أرقى الأساليب وأبلغها فإن لكل باب من هذه الأبواب علماء أفاض خاضوا فيها وغاصوا في أعماق المعاني، وكشفوا لنا عن الكثير من كنوزه، إلا أن الأمر المطلوب في الطرف الحالي، والواقع الذي نعيشه يحتم علينا أن ننظر إلى القرآن الكريم باعتباره كتاب دعوة، فهو الرسالة التي نزلت على رسول الله ليبينها للناس، شارحاً معانيها، مفصلاً مجملها، مخصصاً عمومها، مقيداً مطلقها، ملحقاً فروعاً بأصول. ولهذا كانت مهمة رسول الله صلى الله عليه وسلم حمل هذه الرسالة وبيانها للناس ولم ينزل القرآن عليه جملة واحدة كما نزلت التوراة، وإنما نزل منجماً على الوقائع والأحداث الجارية. (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً).

فنظرة الداعية للقرآن الكريم أنه كتاب دعوة، أي هو الرسالة التي حملها الرسول صلى الله عليه وسلم، ولما كان القرآن قد نزل منجماً على الوقائع والأحداث، مما يثبت قلب الداعية فيزداد يقيناً (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً). وبتتبع السور والآيات بحسب نزولها يمكن الوصول يقيناً إلى المراحل التي مرت بها الدعوة.

والمواضيع التي كانت تتناولها، فتبين وتشرح بعضها وتكشف زيف وبطلان بعضها، وتفضح بعض المتأمرين من أئمة الكفر وتضليلهم للناس. كما تبين فساد ما يسود المجتمع من علاقات سيئة وعادات قبيحة، وأخلاق ذميمة. فلم تقتصر على جانب دون آخر منذ الأيام الأولى، ففي

الوقت الذي تبين فكرا عقديا صالحا كانت تبين معه فساد وبطلان الفكر المضاد له لأنه لا يمكن الكتابة على ورقة مليئة سطورها بكتابات أخرى، بل بد لا من محور المكتوب أولا، لتدوين الجديد، ولا بد من محور التسجيل القديم على شريط الكاسيت، حتى تتمكن من التسجيل الجديد. وفي الوقت نفسه تهاجم بكل قسوة رؤوس الكفر وأئمة الضلال . وهذا ظاهر جلي في معظم سورته أو حسب مقتضى الحال. ولنلاحظ مثلا في السورة الأولى من القرآن الكريم وأعني بحسب ترتيب النزول سورة العلق. بدأت بطلب الإيمان، ثم ذكرت واقع الإنسان وأثر المادة والثراء عليه وانتهت بالتهديد والوعيد لمن يقف بوجه الدعوة ويتصدى لها. (اقرأ باسم ربك الذي خلق.....كلا إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى.... كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية) السورة. وكذلك في السورة الثانية أو الثالثة بحسب ترتيب النزول سورة المدثر. فقد بدأت السورة من حامل الدعوة الأول أن يوجه إنذارا إلى الناس والاستعانة بالله وتعظيمه ثم انتقلت لكشف مؤامرة خطط لها زعماء الكفر والضلال. ووصفت حال القائم على ذلك التخطيط- الوليد بن المغيرة وقد قطب ما بين حاجبيه، وأخذ يزرع دار الندوة ذهابا وإيابا، إلى أن توصل إلى الفكرة التي يريد أن يرد بها على الدعوة، فقال عن القرآن (إن هو إلا سحر يؤثر، إن هو إلا قول البشر)

وصفت الآيات هذه المؤامرة وصفا دقيقا، وخلصت إلى التهديد بالمصير السيء الذي ينتظر هؤلاء الناس. قال تعالى(ذرني ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا... إنه فكر و قدر، فقتل كيف قدر، ثم نظر، ثم عبس وبسر... سأصليه سقر).

يمثل هذه النظرة إلى القرآن الكريم يجب أن ينظر الداعية إلى القرآن الكريم لمعرفة المواضيع التي تعرضت لها الدعوة منذ أيامها الأولى. فلم تقف عند حد البحث في العقيدة، وتركيز الإيمان، ثم العبادات والأخلاق، حتى إذا اشتد سوق الداعية، وقويت الكتلة بكثرة عناصرها. انطلقت تصاريح أفكار الكفر وعقائده ، ثم انتقلت بعد ذلك للتصدي لأنظمة الكفر والقائمين عليها. لا م تكن سيرة رسول الله (ص) هكذا، ولا بد من فهم السيرة من القرآن الكريم وذلك بالنظر إليه كرسالة وكتاب دعوة قام الداعية الأول ببيانه وتفصيله. ويتتبع سورة بتتابع نزولها نصل إلى معرفة أمرين.

الأمر الأول: معرفة المواضيع التي كانت السور والآيات تعالجها مثل موضوع العقيدة وموضوع الرد على العقائد الفاسدة، وموضوع التصدي لأئمة الكفر وزعمائه، وموضوع العلاقات الفاسدة والأعراف والتقاليد السيئة التي كانت تسود المجتمع في حينه. أما الأمر الثاني فهو معرفة مراحل الدعوة، مثل سرية التكتل مع الجهر بالدعوة، ثم الإعلان عن الكتلة، ثم الاتصال بالقبائل ثم مرحلة طلب النصرة، حتى إقامة الدولة، ومن الملاحظ من تتبع السور والآيات، التركيز على بعض الأمور بشكل ملفت للنظر. ومن دراسة ذلك يتبين لنا أن المسألة هي معالجة الواقع الموجود، وبيان ما هو مفقود، فمثلا لم يرد في القرآن الكريم أي مناقشة أو حوار حول وجود الله سبحانه وتعالى إلا لمأما فكان الحوار. والمناقشة حول وحدانيته وتفردته في الربوبية. بينما نجد التركيز المستفيض على البعث والنشور والحساب. (إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى بيعتهم الله ثم إليه يرجعون) (وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون) (و أقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (وقالوا أ إذا كان عظاما ورفاتا أ إنا فمبعوثون خلقا جديد ، قل كونوا حجارة أو حديدا ، أو خلقا مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يبعثنا قل الذي فطركم أول مرة). حيث إن هذا الجانب من العقيدة لم يكن موجودا في أفكار المجتمع ومعتقداته. وقد قبلت هذه الفكرة بالاستهجان والاستغراب

(فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو). وهذا ما يقضي بيانه وضرب الأمثلة عليه لتركيته في الأذهان، (ويقول الإنسان إذا ما مت لسوف أخرج حيا، أو لا يذكر الإنسان أنا

خلقناه من قبل ولم يك شيئا)، (أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم)، (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب... وترى الأرض هامة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبت من كل زوج بهيج)، (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير) فلا تكاد تخلو سورة من السور المكية بل والسور المدنية من ذكر البعث والنشور وعودة الحياة والحساب والجنة ونعيمها، والنار وصفاتها وصفات أهلها وهم يصطرخون فيها. إذن، فالمسألة هي التصدي للوقائع الجارية والمفاهيم السيئة السائدة. ومثل ذلك بالنسبة للعلاقات الفاسدة وأئمة الكفر.

والتزاما بهذا النهج القرآني في الدعوة علينا أن ننظر في واقعنا الحالي لمعرفة ما يجب إنزاله من أفكار أو أحكام تعالج هذا الواقع.

فمثلا. إن العقيدة الروحية تجري في المسلمين مجرى الدم، حتى عند الفسقة منهم ولو أنه لحقها بعض الغشاة بينما نجد أن العقيدة السياسية قد زالت أو كادت عند عامة الناس إلا من رحم ربي، وهذا يقضي بالتركيز على بيان العقيدة السياسية وأنها صنو العقيدة الروحية لا تنفصل عنها. ففي الوقت الذي ندعو فيه لعبادة الله، يجب أن نبين أنه هو المشرع لأمرنا الدينية والدينية، وكما أنه من الكفر عبادة غير الله فإنه من الكفر كذلك أن نجعل مشرعا لأمرنا الحياتية غيره، فكلا الأمرين إشراك بالله تعالى.

وفي الوقت الذي نستعظم فيه ترك الصلاة أو الإفطار في رمضان فإن علينا أن نستعظم ترك الحكم بما أنزل الله، أو القبول بالنظام الاقتصادي الربوي المتحكم. وحين ننكر على الناس امتناعهم عن تأدية الزكاة أو التهاون بها، علينا أن ننكر على الدولة الاستئثار بالملكية العامة، بل وعدم الاعتراف بالملكية العامة، وجعلها ملكية دولة أو ملكية فردية. وحين نصف فردا بأنه حرامي أو لص لسرقته ما يمكن أن يكون بحاجة إليه ونمقته وننزع الثقة منه لأنه تعدى حدود الله، علينا كذلك أن نمقت وننزع الثقة من القائمين على رعاية شؤون الناس، لأكلهم أموال الناس بالباطل.

وحين نمقت هذا الشباب المتهتك من ورجال ونساء علينا أن نمقت الدولة التي شرعت من القوانين ما يحمي هؤلاء، وما يساعد على الفسق والفجور. إن غياب العقيدة السياسية عن أذهان المسلمين، وأبعادها عن مركز تنبيه حملة الدعوة الإسلامية، يشبه غياب البعث والنشور والحساب عن أذهان المشركين إبان عصر النبي صلى الله عليه وسلم.

واكتفي بهذه الأمثلة البسيطة- مع أن الوقائع تفوق الحصر- لعلنا نستطيع إعادة العقيدة الإسلامية السياسية إلى أذهان المسلمين، تمهيدا لإيجادها في واقع الحياة. لذا فإن من الواجب السير في الدعوة على نفس النهج الذي سار عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم تنفيذا لنهج القرآن الكريم في الدعوة. فإيجاد العقيدة السياسية لا يقل أهمية عن إيجاد العقيدة الروحية.

قل إنني هداني رب إلي صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين